الدوجماطيقية والأيديولوجيا السياسية

الباحثة /شيماء كمال امام جادالله

لدرجة الدكتوراة بقسم الفلسفة كلية الاداب – جامعة المنوفية

تمهيد:

ارتبطت الأيديولوجيا بالحياة السياسية ارتباطا وثيقا منذ أن مثلت لها المناخ الداعم لظهورها على يد دى تراسى، ورغم كونه قد أراد لها التوجه بمسار آخر مغاير لما بدت عليه فيما بعد إلا أن الظروف السياسية التى كانت تموج بها البلاد آنذاك، كانت بمثابة الشرارة الأولى لميلاد الأيديولوجيا كمصطلح جديد، ولما كان للسياسة وما تشمله من معطيات تتشابه فى تكوينها مع الأيديولوجيا سواء فى البنية الوظيفية لها أو حضور الدوجما بداخلها، لذا فإن العلاقة بينهما وثيقة للحد الذى تزامنت فيه الحياة السياسية مع الوجود الأيديولوجى.فما هى الدوجما؟ وهل ثمة حدود تفصل ما بين الدوجماطيقية والعقيدة السياسية أم أن أحدهما يمثل المعبر عن الآخر؟ وأين يقع الميلاد الحقيقى للدوجما داخل النفس؟ وما هى سبل الخلاص منها؟ وإلى أى مدى يمكن أن تساهم السياسة فى تعزيز البدائل التى تقدمها الأيديولوجيا؟

وفى الإجابة على ما سبق تبدو أهمية البحث والتى نسعى فيه لبيان الدللات الحقيقية لمصطلح الدوجما وطرق الخلاص منها. كى يتحقق بذلك أهدافه فى التعرف على الميلاد الحقيقى للدوجما داخل النفس وكيف تتكون بداخلنا والعلاقة التى تربطها بالأيديولوجيا السياسية.ولعل ما دفعنا للبحث فى هذا الشأن هو نظرة البعض منا للأراء المطروحة سواء كانت على الساحة السياسية أو الإجتماعية أو الإقتصادية..إلخ بكونها أراء لا تقبل الشك، فهى تمثل عند بعض المنتسبين للجماعات الإسلامية وغيرها اليقين المطلق والخير الأعظم لمستقبل منشود. وقد ارتكز البحث على فرضية مفادها" إن الطريق للخلاص من الدوجما يبدأ بالفلسفة" وقد استعنت للتحقق من تلك الفرضية بكل من المنهج التحليلى والمنهج النقدى.

نحو ميلاد الدوجما(*):

أولًا- الأيديولوجيا وصناعة البديل:

إن أول ما تقوم به الأيديولوجيا هو السعي نحو إيجاد **البديل Alternative** بديل لا غنى عنه على الأقل بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون أنظمة الحياة القديمة ومعايرها وروابطها في طور التفكك الانحلال ، فتقوم برسم صورة لعالم جديد وتستند تلك الصورة إلى تفسيرهم للعالم كله، يستمد منه الإنسان معايير وقواعد للسلوك في حياته اليومية، فالمرء الذي يعتنق أيديولوجية ما يعثر فيها على مرساته ومرتكزه، فهي تمده بالمعرفة واليقين -على حد ظنهم- عن مغذى حياته ومعناها، وتمنحه طمأنينة تشكل الحياه وتشيد صرحها(١).

فالأحداث الكبيرة كالثورات والإنقلابات تساهم بشكل كبير في مجرى التطور الأيديولوجي، لكن اختبار أثر تلك الأزمات على الحركات الأيديولوجية، وقدرة الغالبية على فرض أيديولوجيتها على الطبقات المجتمعية الأخرى أمر مشكوك فيه، فالأزمات قد تُحد من سلطة أي ايديولوجيا وذلك عن طريق أمرين: الأول على المستوى السياسي لأن أي هزيمة تثير التساؤل حول آداء السلطة الحاكمة ومدى صلاحية أيديولوجيتها، وانطلاقًا من القناعة بأن الوضع السياسي القائم مسئول جزئياً عن الأزمة والهزيمة فيبدأ الناس في البحث عن ترتيبات بديلة للسلطة والأيديولوجيا المعبرة عنها، يتجلى في ذلك دور بعض الأحزاب- كما سنوضح لاحقًا- والثاني على المستوى السيكولوجي فإن الارتباط التاريخي بين أي أيديولوجيا وبين هزيمة مريرة قد تجردها من قدرتها على إثارة مشاعر التفاؤل والقوة والثقة في نفوس شعبها، فهي بحد ذاتها شاهدة على الضعف والهزيمة ، وهذا ما

* أو العقدية وهى مذهب اليقين أو القطعية أو الوثوقية، والدوجما من الدوجماطبقيةDogmatism وتنشق من عقيدة Dogma وهى التى يسلم معتنقوها ابتداء كنوع من الإيمان المطلق بالأشياء. عبد المنعم الحنفى: مرجع سابق، ص: ٢٨٤.

(١) محمد سبيلا وعبدالسلام بنعبد العالى: الأيديولوجيا، دفاتر فلسفية، الطبعة الثانية (المغرب:نوبقال للنشر،٢٠٠٦م) ص:١٥.

يدفع البعض إلى البحث عن أيديولوجيا كوسيلة للتخلص من تلك المشاعر والبحث عن صياغات أيديولوجية أخرى [٢].

وتتجلى تلك الصياغة ربما جراء العدوان الناجم عن الإحباط والمرارة التي يشعر بها الأفراد فينظرون للآخر بنظرة عدوانية كما كانت الكراهية هي أساس **الشيوعية**[*] **Communism** ، فيأتي تعيين بعض الأشخاص أو جماعة ما كمصدر للشر يمكن للجميع توجيه عدوانهم إليه، فيتم إستبعاد الذات والمجتمع كسبب للفشل أو الهزيمة يمكن للفرد الاحتفاظ بصورة إيجابية إلى حد كبير حتى في اسوأ الظروف وأكثرها مدعاة لليأس[٣] هذا بالإضافة إلى الأزمة الفكرية التي قد تنجم عن التحديث والتغيير واتساع بيئات الأفراد وخلق نوع من الاضطراب على المستوى الفكري ويصعب عليهم فهم بيئتهم الجديدة أو التكيف معها أو الاستمتاع بها، فيعجزون بذلك عن العمل ويجرفهم القلق وتحتويهم الأزمة ومن هنا يأتي دور الأيديولوجيا على تلبية هذه الحاجة الفكرية من خلال تدريب قواهم وسط فوضى البيئة المعاصرة، وتقديم وصف وتفسير أكثر تماسك للواقع ومكانة الأفراد به، فيتبنون بذلك أي الأفراد تلك النظرة المبهجة واستبعاد غيرها، بفضل سلطة **الزعيم الكاريزمي Charismatic Leader** ونفوذ الحزب أو الحركة وما تتمتع به من إجماع[٤].

وقد يقع أثيرا لتلك الأزمة الفكرية أيضًا كنتيجة لافتقاده الفهم الواضح لذاته والثقة في تلك الذات، فيفتقد بذلك الأساس والسيطرة القوية على نفسه وينصاع للدعوات القادمة إليه، والتي قد تتأتى عنده في صورتان أحدهما تقديم منظومة كبيرة ومدمجة للاعتقاد، و مفهوم للهوية الشخصية والاجتماعية يتثق بإحكام مع هذا النظام ومساعدته في مقاومته

---

(١) بول سالم: الميراث المر، الأيدولوجية والسياسة في العالم العربي، ترجمة: بدر الرفاعي، الطبعة الأولى (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠م)، ص:٤١.

(*) هى نظام اجتماعى لا طبقى، الملكية فيه عامة، والعمل لكل الناس بحسب قدراتهم، ولكل فرد نصيب من الثورة العامة بحسب احتياجاته، وهى تختلف عن الاشتراكية فى أن الأخيرة وإن كانت تركز على الإنتاج وتنادى كل حسب قدراته إلى كل حسب عمله وإنتاجه، فالشيوعية أقدم من الاشتراكية. عبد المنعم الحنفى، مرجع سابق، ص ص:٢٦٩،٢٧٠.

(٢) بول سالم: مرجع سابق، ص:٣٢

(٣) بول سالم: مرجع سابق، ص:٣١.

لاضطرابات الهوية Identity disorders وحالة عدم الانسجام، والآخر يتمثل في عملية استقطاب الرموز الثقافية والشعبية لجعل أيديولجياتهم أكثر قوة وجاذبية[٥].

واستحقاقًا للتأكيد فقد ينفرد أو يجتمع بعض من تلك الدوافع معًا في صورة أيديولوجيا معينة، ولكن السؤال الذي يطرح ذاته الآن: هل تمثل تلك الدوافع حيثيات صناعة البديل في صورة أيديولوجية ما؟ أم أنها درجة من درجات بلوغ السلطة؟ أو بصيغة أخرى لمن يصنع البديل؟ لمجتمع الأيديولوجيا أم لحيازة السلطة؟ والحقيقة أن الأمر نسبي في هذا الشأن أو قل إن شئت هو مضمر للحد الذي قد يُرجيء الحكم على الدوافع الحقيقية وراء البحث عن البدائل، وسواء كانت ظاهرة أم خفية فإن القائم عليها لن يعلن إلا ما يتفق وتحقيق الغاية منه، وهذا يعني أن ساحة صناعة البدائل قد تتسع لتشمل عددًا من الأيديولوجيات المختلفة والتي تتباين في صورها المختلفة وأيضًا في دوافعها الخاصة .

وبالعودة للنظر في بعض من تلك الدوافع سنرى أن صانع هذا البديل إنما يسعى دوما للبحث عن نواقص الأشياء ليكملها بأيديولوجيته، فالصناعة الحقيقية للأيديولوجيا ما هي "**إلا شيء اكتمل نقصانه فلم يعد بحاجة إلى آخر ليكمله**"، وهذا المعتقد ربما يساهم في المزيد من حيازة القناعات بها أو زيادة أعداد المناصرين لها، فالشعور بالهزيمة والإحباط واليأس قد يدفع المرء للبحث عن الوسيلة أو الجماعة التي من خلالها تدفع عنه ذلك الشعور وتبدله بآخر يرغبه هو، فضلًا بأن البحث عن الذات قد يوقعه في تناقض لا يسلم منه أبدا ، إذ كيف ينتمي إلى جماعة وهو بالأصل مواطن في بلدته فإلى أي هويه ينتسب؟! وإلى أي ذات سيبلغ؟! وعليه فإن الأيديولوجيا التي تزعم بقدرتها على معالجته من اضطرابات الهوية هي بالفعل قد تزيد منها وقد لا يشعر بذلك ما دام لم يتحرر بعد فهي تمثل بالنسبة له تمام الصواب والحق الذي لايعتريه باطل، فمن أين تأتي الايديولوجيا إذن؟

---

(١) بول سالم: المرجع نفسة، ص:٢٩.

تظهر الأيديولوجيا أول ما تظهر كأمنية لدى فرد تبدو لديه في شكل حُلم يقظة يسعى لبلورته في صورة أهداف وغايات ، ويتعين هو كالرائد أو القائد أو المرشد ويتحدد دوره والشكل والذي سيبدو عليه ليحيل تلك النظرة إلى عمل داخل المجتمع ككل[٦]، ولكن هل يعنى ذلك أن الأيديولوجيا فكرة فردية على الدوام؟

إن الفرد لا يقدر على التفكير وحده دون أن يقع في محيط الجماعة فلا يوجد كيان ميتافيزيقي كعقل الجماعة الذي يتجاوز الأفراد ويفكر فوق رؤوسهم، ومن ثم فإن الذي يقوم بالتفكير ليس الناس عموما ولا حتى الأفراد المعزولون بل الناس في جماعات معينة كانت قد طورت لنفسها أسلوبا خاصا في التفكير عبر سلسلة لا متناهية من ردود الفعل تجاه أوضاع نموذجية معينة يتميز بها مركزها المشترك، فالفرد الواحد لا يفكر بل يساهم في جعل الفكر يتقدم على ما أوصله إليه الآخرون من قبله، فهو يجد نفسه في وضع موروث ذي أنماط فكرية مناسبة لذلك الوضع ويحاول أن يزيد من أنماط ردود الفعل الموروثة إتقاناً لهذا، فكل فرد محكم سلفاً بكونه ينمو ويشب ضمن مجتمع ما[٧].

وهذا الرأي وإن كان يُعلي من شأن الجماعة ودورها في التأسيس لنسقية الفكر إلا أنه قد يحط من شأن الفرد وقدرته على إنتاج الأفكار بذاته دون الحاجة إلى الوسط الجماعي أو الانتماء لعقل الجماعة، ولا يُخرج الفرد من دائرة الفعل إن لم ينتمي للجماعة ويحدد دوره الخاص في السير على خطاها والنموذج الفكري السابق عليها، وكأن الفكر بالنسبة لها كالإسم الذي يرثه من أبويه دون اختيار له ولا إرادة وتلك مغالطة كبرى لأن العقل يعمل في حالة فردية داخل الجماعة، ومن ثم فإن القول بأن الفرد لا يقدر على التفكير وحده هو أمر منافي لطبيعة العقل البشري، فنيوتن كان وحده حين أتى بقانون الجاذبية الأرضية، فإذا جاء الفكر من الفرد وحده أو وسط جماعة فما الذي يمكننا فعله لإحالته للواقع؟

---

(١) كارل مانهايم: الأيديولوجيا واليوتوبي، مقدمة في سسيسولوجيا المعرفة، ترجمة: محمد رجا الدريني، الطبعة الأولى (الكويت: المكتبات الكويتية، ١٩٨٠م) ص:٢٥٨.

(٢) كارل مانهايم: مرجع سابق، ص ص: ٨٤ ٨٥.

لكي تنتقل الأيديولوجيا إلى المجتمع لابد وأن تمر بعملية عاطفية ومثيرة للشعور تتحول عبرها لمجموعة من منظومات الاعتقاد والشعارات والرموز المحفزة، فالمعماري مثلما يفعل في البناء ويصبح قادرًا على بث الحياة والجمال والخطوط والزوايا البارزة للأبنية [٨]، كذلك فإن كل جماعة أو فريق صاحب أيديولوجية عليه أن يبذل ما في وسعة لتثبيت دعائم أيديولوجيته وتوطيد أركانها، وتوخى النظرة العلمية والإنسانية ومباديء العدالة، وإن تحمل شعاراتهم الدعائية ما يفيد بصوابية منطلقاتهم رغا إنتفاء أثر الموضوعية لديهم– أغلب الوقت– مما يجعل من الصعوبه بمكان وضع معيار دقيق لأيديولوجيتهم فتظل في دائرة الأوهام والأساطير[٩].

فالأيديولوجيا الوطنية–كمثال– التي تنشأ وترتبط بمهام إعادة البناء الوطني والتحديث والتنمية والتي تميل إلى توحيد الأمة، مقابل مختلف النزاعات القبلية والعرقية تسعى إلى تمجيد الرموز الوحداوية وعلى رأسها شخصية الزعيم الوطني وقد تضفي عليها صبغة قدسية وتصبح العلاقة بالأمة أشبه بـ"**ديانة سياسية حقيقية**" فكثيراً ما تلجأ لاستعمال الأساطير والدعوة للاعتقاد في الخوارق مما يساهم في المزيد من التعبئة الجماهيرية[١٠] **Mass mobilization** أو **التربية الموجهة Directed education** لتلك الجماهير والمختلطة بالاستبداد الممارس على النفوس ذلك لأن التربية الثورية أو العمل الأيديولوجي هو قبل كل شيء تلقين لتصور خيالي قادر على كل شيء وبذات الوقت يهاجم وعي الناس بالأشياء[١١]ليثبت ما يصلح لخدمة غايته ويهدم ما دون ذلك.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط بل إنها تعمد إلى تسخير العلم لخدمتها– كما تم بيانه – فتأخذ عنه الحجج للاستعمال وتستدعي النتائج العلمية شهودًا على صحة حقائقها الإيمانية الشاملة لكل شيء، فالعلم لديها إنما جاء ليدافع ويبرر فتأتي بالأسئلة العلمية

---

(١) بول سالم: مرجع سابق، ص:٧٣.

(٢) أمين حافظ السعدني: أيديويوجية السلطة السياسية في المذهبين الليبرالي والاشتراكي (القاهرة: الوثائق الجماعية،٢٠٠٦م) ص:٣٥.

(٣) محمد سبيلأ" الأيديولوجيا كأسطورة" المجلد ١٣، العدد٧٠، معهد الإنماء العربي (بيروت، ١٩٩٢م) ص:١٤٥.

(١) محمد سبيلأ وعبدالسلام بن عبدالعالي: مرجع سابق، ص:٥١.

لتفحصها من زاوية افتراضها الأيديولوجى[١٢] فهى تعمل على استقراء النواقص داخل الواقع استنادًا إلى جملة من الدوافع التي تعزز من الحاجة إليها، فتدفعها للعمل نحو المجتمع مستعينة بكم من الأدوات التي تسخرها لخدمتها لتحقيق أغراضها ولتساهم في إحالتها من كونها مجرد حلم يقظة إلى حقيقة تقبل الوجود والتعايش داخل المجتمع، ولكن في أي صورة تتعايش إذن؟

ثانيًا- الأيديولوجيا والمطلق:

عرف **أرسطو الحقيقة**[*] **Truth** بأن تقول "**عما هو موجود أنه موجود وأن ما ليس موجودا فهو ليس موجودا**"، وهذا التعريف يعني أن ثمة تطابق بين ما يقال وما هو موجود بيد أن هذا التطابق يفترض أن الإمكانية الأنطولوجية - أى الوجودية - بصدق العبارات مشتقة من الإمكانية الأيديولوجية للموجودات من حيث كونها مطابقة لذاتها، وهذه المطابقة لها هويتها ولهذا يقال عن الهوية أنها طبيعة الموجود يعني أن توجد أي أن تكون مماثل لذاتك، فالموجود والوحدة شيىء واحد وكل منهما متضمن للآخر[١٣]. ولكن هل ثمة حدود لهذا التطابق؟ بمعنى آخر كيف يمكن أن أحكم بجدوى ذلك التطابق؟ وما إذا كان تام أو ناقص بين الشيء وما يقال عنه؟ وماهي علاقة الأيديولوجيا بالحقيقة؟

يرى **ماركس** أن الأيديولوجيا هي العدو اللدود للحقيقة، إذ يكمن الباطل بها لأنها من صنع الطبقة الحاكمة لذا فإنها تهدف إلى وضع قناع للاستغلال والقمع، كما أن آراء كل الناس تتشكل بشكل واعٍ أو غير واعٍ بواسطة العوامل الثقافية والاجتماعية، فهم يدافعون عن تلك الآراء بشكل أكثر طلاقة وإقناع عن طريق التعلم، الأمر الذي يستتبع عدم وجود معيار موضوعي للحقيقة يمكن الحكم على الأيديولوجيا من خلاله، هذا

---

(٢) محمد سبيلأ وعبدالسلام بن عبدالعالي: مرجع سابق، ص:١٥.

(*) أو هى مطابقة الفكر للواقع، وقد اختلف الفلاسفة حول تعريفها فمنهم من يعتقد أنها واحدة وكلية وهؤلاء أصحاب المذهب العقلى الذى يمثله أرسطو، أو أنها التى لاوجود للحقيقة المطلقة بها وهؤلاء هم أصحاب المذهب الجدلى ويمثله هيجل، ومنهم من عرفها بأنها المفيد والنافع الذى يحقق أكبر قدر من الخير وهؤلاء البراجماتيون مَثله جيمس وديوى، ومنهم من رأى أنها ذاتيه شخصية تعاش مباشرة فى تجربة حية ويمثل هؤلاء الوجوديون، ويبدو أن رؤية كل منهما لها جاءت معبرة عن المذاهب التى يمثلونها. عبد المنعم الحنفى: مرجع سابق، ص:٩.

(١) مراد وهبة: ملاك الحقيقة المطلقة (القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩م) ص:١٧٤.

بالإضافة لارتباطها بشكل شبه دائم بالسلطة لذا فإنها تسعى في عالم من الحقائق والقيم والنظريات إلى ترتيبها وإضفاء الشرعية عليها وعلى مجموعة من المعاني التي تساعدها في تقديم خارطة فكرية للعالم الاجتماعي وإقامة العلاقة بين الأفراد والجماعات من جانب الأبنية الأوسع للسلطة دون أن تبالي بحقيقة ما تقدمه أو بطلانه [١٤].

وتجدر الإشارة إلى أن الظروف التاريخية التي عاصرها ماركس – ونضاله ضد السلطة للمطالبة بحقوق الطبقات العاملة – آنذاك هي التي دفعته ربما إلى هذا الرأي ووصف الأيديولوجيا بأنها العدو اللدود للحقيقة رغم كونه قدم أيديولوجيته الماركسية هو الآخر ، وإن لم يعلن عنها كأيديلوجيا فهي بالفعل كذلك، أما عن ارتباطها بالحقيقة أو تجردها منها فبالنظر للتعريف الذي قدمه أرسطو لها فإنها تظهر وتُخفي من الأقول ما يتسق وتحقيق أهدافها لا مع ما يطابق حقيقة وجودها، لذا فإن الحقيقة داخل الأيديولوجيا هي الأخرى تأتي وتذهب بمقدار الحاجة إليها هذا بالنسبة لذويها، أما عن معتنقيها فلابد أن تنطبع الحقيقة في أذهانهم عنها وإلا سينتقص مقدار الإيمان بها ومن ثم بداية الإنشقاق عنها.

فالفرد ينتمي إلى الجماعة لا لأنه ولد بها ولا لأنه يسعى للإنتماء إليها ولا لأنه يشعر تجاهها بالانتماء فحسب بل لأنه يرى الحياة والعالم في ضوء المعاني التي اكتسبها من الجماعة أو التي طورها داخل الجماعة، ولكي يتحقق لديه فهم كامل لسلوك الفرد فلابد من دراسة أنساق المعاني الخاصة بجماعته التي يوجه لها انتماءاته وولاءه، فحين يعي الإنسان العالم ويعي وجوده بداخله يصبح حينئذ واعيًا بالذات، إذا ما تمثل أيديولوجيا معينة فهو ينحاز بالضرورة إلى رؤية معينة لما ينبغي أن يكون ويرفض أي رؤية أخرى فهو لا يعترف إلا بهذا التمثل للعالم ويرفض كل تماثل مغاير، وهذه **التماثلات Symmetries** هي حصيلة لتجربة تاريخية طويلة عند شعب ما أو أمة معينة، فالدفاع

---

[٢] أندروهيود: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية، ترجمة محمد صفار، الطبعة الأولى(القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢م) ص:٢٦.

عنها قد يصل إلى حد الموت كما هو الحال في بعض الثورات السياسية[١٥]. وهذا القول إنما تأصيل لوجود الدوجما داخل الفرد، فكيف يحدث ذلك؟

إن الأيديولوجيا من حيث هي مطلق تعد الأيديولوجيات الأخرى نسبية وتعتبر ذاتها هي الوحيدة المطلقة فالمطلق لا يقر البدائل، فإذا كان ثمة مطلق فليس من مبرر لافتراض آخر من طبيعة متباينة لأنه بحكم طبيعته واحد وليس له ثان، ولكن استحالة البدائل المطلقة لا يعني نفيها ولكن يعني عدم قدرتها على التعايش معًا ومن ثم يصبح مقدساً من حيث كونه يتفرد بالوجود وحده[١٦] ولأن المُطْلقات لا يمكنها التعايش سلميًا مع بعضها البعض بحكم كونه واحدا بالضرورة، ففي حالة تحقيق التعايش فإنها ستتوقف عن كونها مطلقات لأنها تتصارع من أجل البقاء، ويقوم الإنسان نيابة عنه بهذا الصراع بتبنيه لهذا المطلق، فهو يصارع من أجله للحد الذي يصبح مهيئًا لقتل المطلقات الأخرى[١٧].

ومن ثم فإن الدوجما التي تأبى التعايش مع الآخر هي بالأحرى من تبارك العنف أو تدفعنا إليه على أقل تقدير، والقول بأن الوعي بالذات لن يتأتى إلا في حضور الفرد وسط جماعة أمراً نسبيًا فمن الممكن أن يوجد الفرد داخل جماعته ومع ذلك يشعر بالإغتراب داخلها بيد أن الفرد لن يذهب للمطلق إن لم يطرق هو بابه.

فالعقل ينزع بطبيعته نحو توحيد المعرفة الإنسانية ومن أجل ذلك يتجول في كل مجالات المعرفة، ليضمها جميعًا ويربط فيما بينها في وحدة عضوية، فهو لن يفهم دون أن يوحد ولا يكتفي بالوقوف عند المجموعات التجريبية، وإنما يحاول أن يجعلها تتقابل فى نقطة واحدة، وهذه الوحدة لا يمكن فهمها مقابل الكثرة فإذا كانت الوحدة ترمز إلى المطلق والكثرة إلى النسبي، فهذا يعني بأن المطلق لا يمكن فهمه إلى في حضور النسبي، فالإنسان يبحث عن المطلق دون أن يقتنصه بزعم امتلاكه وعليه فإن توهم الأيديولوجيا

---

(١) أبو الهيجاء محمد رافع العاني"جدلية العلاقة بين الأيديولوجيا والتطور"،العدد٩٧، مجلة العلوم التربوية والنفسية (الجزائر :٢٠٢٣م)، ص ص: ٩٧، ٩٨.

(٢) مراد وهبة: مرجع سابق، ص: ١٦٩.

(٣) مراد وهبة: المرجع نفسه، ص: ١٨٨.

لامتلاك الحقيقة المطلقة هو ما يجعلها تعزز الرابطة بين العنف والمقدس، وتلك هي طبيعة الدوجما بداخلها[١٨].

والتي بدت منذ أعماق التاريخ بإيمانها بقدرة العقل على المعرفة اليقينية دون الاعتتراف بمحدودية هذا العقل والشروط التي تحكم عمله وتبين ما يمكن له معرفته وما لا يستطيع أن يعرفه، و الكيفية التي يصل بها العقل إلى هذه المعرفة، ووجه الحق الذي استند إليه في إقراره لهذه اليقينيات، فتبلورت الدوجما في اللاهوت المسيحي الكاثوليكي وعنى به العقيدة أي الحقائق الدينية العليا لها في القرن الرابع الميلادي والتي أصبح من يرفضها زنديقًا وخارجًا على الكنيسة كما حدث مع جاليليو حينما كفره أعضاء المجمع المقدس لقوله بأن الشمس هي مركز العالم ، فالدوجما بذلك لها سلطان وارد من مصدر إلهي مفارق للعقل، فضلا عن كونها لم تجد صداها فقط بالدين وحده وإنما وجد أيضًا في التيارات الفكرية والاجتماعية المتنوعة، فهي وإن كانت ترتكز إلى مرجعية سماوية فإنها في المجال الاجتماعي تخضع لهيمنة النصوص الوضعية لبعض الآباء والأجداد والمفكريين والعلماء من أصحاب النفوذ المرجعي، وبهذا المعنى تصبح الدوجماطيقية هي سلطة النص التي يلتزم بها المفكرون الواقعون تحت سطوة هذه السلطة دون تمحيص أو برهان كافٍ أو القبول بأنها قد تحتمل شيء من النقص أو الخطأ[١٩]

ومن ثم فإن الاعتصام بالذات الأيديولوجية يؤدي إلى القطيعة والانغلاق والتشرنق الفكري وربما إلى نوع من **اللاهوت السياسي Poltical theology**، يرى في نفسه ذاتًا صافية وطهرانية مقدسة فيضر بالوعي الإنساني ويبقى مرهونًا بأيديولوجية أحادية تواجه بمفردها آليات التحضر وتدعي وحدها الوصاية على الصالح العام الإنساني بمختلف جوانبه[٢٠]

---

(١) مراد وهبة: مرجع سابق، ص: ١٦٥.

(١) أمين حافظ السعدني: أزمة الأيديولوجيات السياسية،الطبعة الأولى(القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤م)، ص: ٢٦-٢٨.

(٢) أمين حافظ السعدني: المرجع نفسه، ص:٣٥.

وتنزع نحو احتكار الحقيقة أو الرأي الصائب ومن ثم يرى اتباع الأيديولوجيا المعنية، أن كل من يخالف فكرهم هو خطأ وأن الصواب إلى جانبهم دائمًا وهذا ما يُطلق عليه اسم التمحور الذاتي **Self Pivoting** ،فقد تنجرف مجتمعات بأكملها إلى موقف كهذا مما قد يؤدى إلى حروب وصراعات تدوم قروناً طويلة مثلما حدث بين النازية والصهيونية وبعض المنظمات العنصرية وأتباع المذاهب الدينية فضلًا عن **الإطلاقية Elatelaqeyah** التي تنجم عند ثبوت صحة فكرة معينة في فترة وظروف تاريخية معينة، فإن النظرة لتلك الفكرة يتم على أنها فوق النقد، وهذا يقود إلى الحكم على الماضي بموجب هذه الرؤية، ومن ثم إسقاطها على المستقبل(٢١)

ولذا فإن غرس التعصب بأيديولوجيا الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، إنما يمثل جزءً لا يتجزأ من عملية تربية وتجنيد العضو في هذه الجماعة، وإبراز ما يميزهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى، والتركيز أيضًا على نقاط الاختلاف والتمايز، كل هذا يمثل إحدى جوانب الدعوة والتربية الأيديولوجية(٢٢)

فبداية من الحقيقة وانتهاء بالدوجما مرورًا بالمطلق فإن جميعها مترادفات لما تتضمنه الأيديولوجيا بطبيعتها التي لا تقبل الشك ولا تسمح به داخل معتقداتها التي تزعم الحقيقة المطلقة، فهل كانت الدوجما على موعد مع الإيديولوجيا منذ نشأتها أم أنها دخيلة عليها؟

يقوم الجهاز العصبي بترتيب المعلومات وربطها بعضها بالبعض الآخر لاستنتاج معلومات أخرى، كما يقوم بتكوين وتوليد الأفكار، والتفكير الآنى والتخطيط للمستقبل، وتخزين المعلومات والنشاطات التي تميز السلوك الإنساني كالحركة والشعور والتطلع للمستقبل ومختلف العمليات العقلية(٢٣)، والعقل جزء من هذا الجهاز وعندما يكون في حالة

(٣) عبدالعزيز على السديسي: التحيز الأيديولوجي في الفكر والتحليل الإقتصادي الغربي (الرياض: دار النشر العلمي والمطابع،١٩٩٨م).

(٤) نسيم بخوس" الوعي الاجتماعي والأيديولوجيا" العدد١٠، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية،(الجزائر،٢٠١٢م)، ص: ٢٢٤.

(١) جاسم رفعت عبدالله:"علم الأعصاب المعرفي" العدد٩٦ مجلة العلوم التربوية والنفسية،(فلسطين،٢٠١٣م) ص: ٥٢٥.

الفعل فإنه يستلزم فاعلًا ومفعولًا به، فهو ينطوي على إحداث تغير ومعنى ذلك أنه بحاجة إلى طرف آخر ليحدث فيه ذلك التغير وهذا الطرف يتمثل في الكون، فالعقل يوجد في الكون وهو جزء منه أي أنه قادر على أن يعيه، والعكس ليس صحيحا، إذ ليس للكون القدرة على أن يعي ذاته وعليه فإن قدرة العقل على الوعي بذاته هي في الوقت نفسه قدرته على الوعي بالكون ومن ثم فهو قادر على معرفة الكون فالإنسان كائن عارف[٢٤].

وهو يملك فى طريقه للمعرفة تتمثل في كونها من العقل إلى الحواس أي لحظة إنبثاق المعرفة وصدور الفكرة عن العقل، فهي تحدث في لحظة ما وتظهر ثم تنطلق إلى الحواس[*] والطريق إلى المعرفة تمثل هنا لحظة لا تدرج فيها ولا محطات تتوقف عندها[٢٥]. فالخلايا العصبية التي تصدر منه تقوم بإرسال إشارات عصبية إلى الجسم، ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف تتولد الأفكار من نبضات الأعصاب؟[٢٦]

إن الأحاسيس هي العنصر الأول للفكر وجميع الملكات Faculies وعمليات الفهم البشري Entendement تختزل إلى الإحساس وهي أربعة ؛الإدراك والذاكرة والتقييم والإرادة، فإذا ما كان الإدراك هو الإحساس بالأشياء فإن الذاكرة هي الإحساس بالذكريات

---

[٢] مراد وهبة : مرجع سابق، ص:١٧٥.

[*] وذلك عن طريق ساق المخ Stem Brain الذى يتكون من النخاع Medulla الذى تمر من خلاله جميع الألياف العصبية التى تُنقل الإشارات بين الحبل الشوكى والمخ الأمامى أو المخيخ، وتنتقل بواسطة ثلاث حزم كبيرة من الألياف العصبية تسمى سويفات المخيخ Cerebela Peduncle والنخاعMedulla أحد مكونات ساق المخ، وهو استمرار لمقدمة الحبل الشوكى، والتى تمر من خلاله جميع المعلومات الواردة والصادرة والألياف العصبية الحاملة للمعلومات من وإلى المخ، وترسل فروعاً إلى منطقة فى النخاع تسمى الجهاز المنشط للتكوين الشبكىPeticular Activating System حيث يقوم برصد المعلومات الواردة والصادرة ، وتنقسم قشرة المخ إلى أربعة فصوص: منها الفص الجدارىParietal وهو المسئول عن ==الإحساس فتصل له المعلومات من مستقبلات اللمس والتذوق والآلم والحرارة والضغط، ويوجد فص مقدمة الجبهةPretional منطقة من القشرة المشاركة التى تقع بها الأنشطة الفكرية المعقدة مثل التخطيط وتكوين أفكار جديدة وتعديل الأنشطة الفكرية المعقدة مثل التخطيط وتكوين أفكار جديدة وتعديل السلوك وتكيف أفعال الإنسان مع قواعد السلوك الاجتماعى. للمزيد انظر: جاسم رفعت عبدالله: مرجع سابق،ص ص:٥٣٧،٥٣٨.

[١] عبدالله إبراهيم: ما هي الأيديولوجيا علم الأفكار أم الأفكار بدون علم؟، الطبعة الأولى(بيروت:دار التنوير،٢٠١٧م)،ص:٦٧.

[٢] مراد وهبة: مرجع سابق، ص:١٦٠.

والتقييم هو الإحساس بالروابط والعلاقات، والإرادة هي الإحساس بالرغبات، وإذا ما كانت العمليات الثلاثه الأولى تمثل عند الإنسان وسائل المعرفة ، فإن العمليه الأخيرة تمثل وسيلة الفعل، والعمليات الأربعة هي نتيجه الحواس، فالأشياء الخارجية تُحدث إنطباع في الأعصاب التي بحركتها تنقل الانطباعات إلى العقل والذي بدوره يتلقي تلك الانطباعات ويحيلها إلى إحساس، إذا ما كان الشيءا، وذكرى إذا كان الشيء غائبا، وإلى رابطة أو صلة إذا وجدت عدة أشياء متشابهة أو مختلفة، وإلى تفكير إذا وجدت عدة روابط، وإذا أحدث الانطباع الرغبة فإن العقل يحدث حركة أعصاب منه إلى الخارج لتلبية تلك الرغبة مما يؤدي إلى الفعل، وعليه فإن التفكير لن يتأتى إلا إذا حدث الإحساس الذي يولد عنه الانطباع، ودليل ذلك أنه من الممكن ان أتكلم إلى مالا نهاية عن الألوان لشخص أعمى منذ ولادته أو عن الأصوات لشخص أصم منذ ولادته ومهما تكلمت فلن يعي ما أقصده(٢٧).

وبناء عليه فإن العقل حينما ينفعل بما حوله عن طريق الإحساس فإنه سرعان ما يبلور تلك الإحساسات المختلفة وتخرج في صورة انطباعات وأفكار، والتي تعود مرة أخرى للعقل ويخرجها هو في هيئة معارف ، ومن ثم فإن الدائرة التي يعمل داخلها العقل تبدأ من عنده لتنتهى وتنتهي لتبدأ أي أنها تأخذ منه لتعطي، وتعطي لتأخذ في حركة ديناميكية سريعة، وهذا التفسير لحركة العقل هو ما يجعلنا نناصر القول الذي يذهب إلى أن "**كل ما هو مكتسب فهو قابل للتغيير**" فهل من سبيل لإجهاض الدوجما من الفكر إذا ما اختلطت بها؟

ثالثًا: خلاص الأيديولوجيا من الدوجما:

إن الأيدولوجيا لا يمكن أن تولد إلا من مخاض تاريخي سواء طال أو قصر فإلغاؤها لن يتم إلا بزوال الظروف التاريخية التي أوجدتها، ولا يمكن أن تنمو إلا بالفكر النقدي الذي يحركها من الداخل، ونقد الفكر من وجهة نظر فلسفية، يساعده على تصحيح أخطائه وتحسين إدراكه لمفاهيمه ومبادئه، فثمه فرق بين النقض الذي يمارسه علي غيره

(٣) عبدالله إبراهيم: مرجع سابق، ص ص: ٥٢،٥٣.

من المذاهب أو الاتجاهات الأيدلوجية أو غير الأيديولوجية و بين النقد الذي يمارسه الوعي الفلسفي على الفكر الأيديولوجي وتُحدث به حركة هائلة لتحسين نوعيته معنًا وأسلوبًا، فإذا ما كان الجدل الأيديولوجي لا يملك المعيار الحاسم لتبين حقائق الأمور وأبعادها وعلاقتها ببعضها مع البعض نظرًا لطابع الانحياز فيه فإن الرجوع إلى معايير الوعي الفلسفي **Philosophical awareness**هو السبيل المتاح نحو تبديد الالتباس وتركيز التفاهم حول الحقيقة[٢٨].

وعليه فإن البحث الفلسفي هو بحث عن الهوية الكامنة في الأفكار والأجساد والأشياء والآخرين، لأنه يعزز إستقلال الفكر الذي يؤسس لحرية الكلام والفعل ويدعو الإنسان إلى تثبيت استقلاله الفكري إذاء أنماط جديدة بعيدًا عن استراتيجيات السيطرة على العقول والأرواح والتحرر من مظاهر العبودية الطبيعية التي تقترحها الأيدولوجيا[٢٩].

فكل مانعرفه هو معرفة غير تامة تتغير وتتطور مثل الواقع نفسه، فالنظرية التي يمكن أن نعدها دقيقة وصحيحة اليوم يمكن أن تختفي يومًا ما لأن المصالح الفعلية أو العملية التي لعبت دورًا في وقت تشكيل مفاهيمها قد اختفت وكذلك الأشياء والأوضاع والحالات التي تعود إليها، ولا يمكن لهذه الحقيقة إذا أن تُبعث من جديد، فليس هناك من هو فوق الإنسان القادر على الإحتفاظ في روحه بذات المعرفة الكلية للعلاقات الحالية بين محتوى الفكر وموضوعاته[٣٠]. ولما كانت المعارف تتغير وتتبدل عبر الأزمنة المختلفة، لذا فإن الحكم عليها هو أيضًا عُرضة للتباين والاختلاف، فالأحكام وإن كانت نسبية فعلى من يصدرها أن يحمل ولو قدرًا من الموضوعية.

وإذا كانت **الموضوعية Objectivity** في العلوم الطبيعية تعني ضرورة أن يرصد العالم الوقائع فحسب،أي أن يهتم بالموضوع الذي يُطرح أمامه فقط فلا يدخل ذاته

---

(١) خليل أحمد خليل:"الأيديولوجيا في مسارتها من الوهم إلى العلم" العدد٦٠، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية (بيروت:٢٠١٧م) ص: ١١٩.

(١) محمد نور الدين:"مفارقات الفلسفة" المجلد٣٥، العدد٤٠٥، المستقبل العربي(بيروت،٢٠١٢م)، ص٨٩.

(٢) سليمان خال المخادمة:"نقد ماركس هوركهايمر"، المجلد ١٨،العدد٧٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية (الكويت:٢٠٠٠م)ص ص: ٩٦، ٩٧.

أو مشاعره أو أحاسيسه أو أمانيه في هذا الموضوع ، فإن الأمر داخل العلـوم الإنسـانية يتغير بعض الشيء، وعلة ذلك ربما تكمن في أن الإنسان بها يدرس الإنسان الآخر، فهل من الممكن أن لا يتأثر الإنسان الباحث بغيره المبحوث؟ فمثلًا إذا ما قلـت بـأني" **أشـعر بالنفور من النساء اللائي يصفعن أطفالهن**" سوف تنتقل لنا حقيقة عند بعـض النـاس و سوف تنقل لنا كذبًا عند آخرين، ذلك لأن حقيقة التأكيدات التي تقرها العبارات الأخلاقيـة لن تعتمد أبدًا على الشخص الذي يقولها ولا الزمان ولا المكان الذي قيلت فيه[٣١]، ولكـن هل يعني ذلك انتفاء الموضوعية داخل العلوم الإنسانية والمعرفة البشرية؟

لما كانت الموضوعية تشتمل على العديد من المعاني المتداخلة والاستقلال عـن الوعي والإدراك، فالوجود الموضوعي للأشياء يعني أنها يمكن أن توجد حتى ولـو لـم يدركها أو يعيها أحد، ولكن أيمكن للألم أن يوجد حتى ولو لم يشعر به أحد؟ إذا كان ذلـك محالًا كان الألم غير موضوعي بهذا المعنى كذلك واستقلال الرأي، فلو اعتقدنا أن شخصًا ما يستحق الإعجاب وجدير به حتى لو كان عند بعض الناس رأي آخر فإن جدارته حـين إذن لا تعتمد على رأي الناس فالحكم يتحدد عن طريق عوامل مناسبة كالميل أو التحيـز الشخصي لذا فإن مقولة **برتراند راسل** عن الحكم الموضوعى بأنه "**هـو مـا تتسـاوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاويا التي يشاهدون منها في شـيء يبدو موضوعيًا شريطة أن يوجد وجود مستقل عن وجود الذوات الذهنية**"[٣٢].

وعلى الرغم من صعوبة تحقيق ذلك إلا أنه من غير المستحيل أن يتحقق، خاصة وإن الدوجما في النفس صناعة بشرية تولد وتنمو بإرادة الأنا أو الآخرين لها، فهي ليست بالشيء الذي يُفطر عليه المرء منذ ولادته ولا يستطيع أن يتحرر منه، وإنما هي مكتسبات سياسية واجتماعية ودينية...إلخ، تتراكم لديه بشكل مقصود لتحقيق أهداف خاصة ، فالمرء لا يولد منحازًا إلى جماعة دون غيرها وإنما تتشكل انحيازاته الخاصة تباعًا نحو كل مـا يرنوا لكفالة حياة أفضل بالنسبة له، وهذا ما يتجلى بصورة أوضـح داخـل الأيـديولوجيا السياسية بوجه خاص.

---

[٣] حسين علي: العلم والأيديولوجيا بين الإطلاق والنسبية (بيروت: التنوير،،٢٠١١) ص:١٠.
[١] حسين علي: مرجع سابق، ص ص: ٨ ٩.

علاقة الأيديولوجيا بالسياسة

ذهب البعض إلى أن الفكر السياسي يعد أسبق صور الفكر الإنساني وذلك على عكس ما يعتقده الكثير من الناس، فعند اجتماع الأفراد معاً في مكان واحد كان من الضروري ظهور الفكر السياسي بينهم بصورة تضمن لهم تنظيم علاقة أفراد هذه المجموعة أو هؤلاء الأفراد في تعاملهم مع بعضهم البعض، وقد سبق فى ذلك تفكيرهم في وجود الآلهة، وهذا يفسر حقيقة تأليه الملوك قديمًا، وظهور **نظرية الحق الإلهي**(*) لتبرير سلطة المَلك هذا بالإضافة لاتصال هذا الفكر الوثيق بكيان الفرد و مجرياته وحقوقه العامة، فالناس خُلقوا متفاوتون في القوة بمختلف صورها، وهذا التفاوت ما جعلهم يفكرون في علاقتهم بالأقوياء المتسلطين عليهم وعلى أرزاقهم وحريتهم الخاصة دون مراعاة لهم، فالإنسان الضعيف انشغل بالفكر لرفع هذا الظلم عنه والتخلص منه ولذا كان الفكر السياسي يمتد إلى أغوار النفس البشرية وعقولهم ويستحوذ على النصيب الأكبر من عناية واهتمام الجماعات البشرية(٣٣).

وقد تبلور هذا الفكر على مر العصور في صور أيديولوجيات مختلفة اتخذت من السياسة الطابع المميز لها، فكتاب كفاحي لهتلر و فلسفة الثورة لعبدالناصر كانت جميعها تحمل أيديولوجيات سياسية، والمعتقدات التي تؤمن بها من وجهة النظر السياسية، كعلاقة المواطن بالسلطة والجهة التي تكمن بهاهذة السلطة، والقدر الذي يتمتع به الأفراد من الحرية والمسئولية إلي غير ذلك من أمور تتصل بشئون الحكم ونظرياته فضلًا عن كونها تناقش موضوعات إقرار وتبرير النظام الراهن، وتستخدم من قبل الثوريين في محاولة الإطاحة بالنظام، فإذا ما التجأ الحاكم إلى ادعاء واستخدام السلطة من السماء عن طريق

(*) نظرية الحق الإلهىDivine right of kings هو مفهوم يدافع عن الملكية المطلقة، والنظام الذى يكون فيه الملك يتمتع بحصانة كاملة، ويحق له تغير القوانين من غير محاسبة لأنه يستمد سلطانه من الرب.

(١) عبدالله الطاهرمسعود"بين الأيديولوجيا والفلسفة السياسية" العدد٧، مجلة الباحث (ليبيا،٢٠٠٩م) ص:١١٢.

الحق الإلهي، فسوف يكون لهؤلاء الثوريين أن يبرروا أعمالهم طبقًا لبنود الحق الطبيعي للأفراد، وتبعًا لرضا وموافقة المحكومين أي أنها بذلك تحمل الفكرة ونقيضها.(٣٤)

وعليه فإن البحث في الفكر السياسي الأيديولوجي يدور معظمه حول القضايا التى تتعلق بالأهداف المرحلية، وبالوسائل اللازمة لتحقيقها، أي خطط استراتيجية في ضوء الغايات العليا المرسومة والمقبولة كشيء أساسي وممكن فيلجأ إلى كافة الوسائل والأساليب المتاحة وغير المتاحة لتدعيم وترسيخ بأهمية تلك الغايات و وبإمكانية تحقيقها وبالنتائج المترتبه عليها(٣٥).

وهكذا المضمون السياسي يتباين بتعدد الأيديولوجيا ، فالاشتراكية كأيديولوجيا ليست كالأيديولوجيا القومية أو الثورية أو الاستبدادية، وهكذا فإن الأيديولوجيا تختلف تبعًا لموقفها من النظام السياسي القائم، ولنوعية ثقافة المبلورين لها ولظروف المجتمع الذي تنشأ فيه، ولطبيعة الفكرة المحورية التي تقوم عليها، ومن ثم فإن لكل أيديولوجيا مضمون سياسي خاص في بعض الوجوه ومشترك في وجوه أخرى(٣٦).

ولذا فإن كلمة الأيديولوجيا لا تنفصل عن دراسة السياسة، ولأن الأيديولوجيا ليست إضافات اختيارية أوخارجة عنها بل تعد بمثابة الرموز التي تنظم جميع الممارسات داخلها ، والمقياس التمثيلي الذي يمكننا من معرفة مدى إمكانية تعديلها جينيًا للخير أم للشر من أجل تحسين ممارساتها أوإدخال ممارسات أخرى جديدة عليها (٣٧).

وعلى الجانب الآخر فإن الأفكار تؤثر في الحياة السياسية بعدد من الطرق فهي في المقام الأول تقدم منظومة يتم من خلالها فهم وتفسير العالم، فلا يراه الناس كما هوفحسب ولكن فقط كما يتوقعون أن يكون، بعبارة أخرى إنهم يرونه عبر حجاب من المعتقدات والافتراضات المتأصلة حيث يعتنق كل شخص سواء بوعي أو بدونه مجموعة

---

(٢) عبدالرحمن خليفة: أيديولوجيا الصراع السياسي، دراسة في نظرية القوة،(الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،١٩٩٩م) ص:١١٢.

(١) عبدالرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل: مرجع سابق،ص:٨٨.

(٢) عبد الرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل: مرجع سابق، ص:٨٤.

(٣) مايكل فريدن"عصر ما بعد الأيديولوجيا، مدخل إلى مواجهة الأوهام"،العدد٦، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية(بيروت،٢٠١٧م) ص:٣٠٦.

من المعتقدات والقيم السياسية التي ترشد سلوكه وتؤثر عليه، فهي تحدد بذلك الأهداف المُلهمة للفعل السياسي(٣٨).

كما أنها تساعد على تشكيل طبيعة النظم السياسية، فانقسام العالم إلى مجموعة من الدول القومية، وتركز سلطة الحكومة عادةً على المستوى القومي ما هو الانعكاس لأثر الأفكار السياسية كفكرة القومية استناداً **لمبدأ تقرير المصير**(*)**Self determination**، فضلًا عن قدرتها على تكوين اللحام الاجتماعي الذي يزود الجماعات الاجتماعية بل المجتمعات بأكملها بمجموعة من المعتقدات والقيم التي تعمل على توحيدها كالاشتراكية في الطبقة العمالية على مستوى العالم، فهي تساهم في تعزيز الإحساس بالانتماء والتضامن(٣٩)، ومن ثم فإن الطريق موصول بينهم إلى الدرجة التي يمكن بها أن نعتقد أن الأيديولوجيا ما وجدت في بادئ الأمر إلا لكي تكون سياسية، لذا فإن النظام السياسي أيًا كان شكله وأيًا كانت صبغته لا يمكن أن يتعايش بدون أيديولوجيا معينة يعيش بها ولها، فالمتتبع لنشأة الأيدولوجيا سيجد أن الموضوعات التي تطرقت إليها كانت سياسية(٤٠).

هذا بالإضافة إلى أن الأيديولوجيا السياسية ذات أهمية في حياة الجماعات والمجتمعات وما تقوم فيها من حركات وتغيرات من خلال ما تقدمه من معلومات و بيانات **لتوجيه Guidance**السلوك السياسي للأفراد داخل المجتمع الواحد، وتقديمها معلومات عن الجماعات والشعوب الأخرى، ونظم الحكم السائدة، وكيفية الإدارة واتخاذ القرار، واختيار النواب والممثلين والحكام وموقفهم من الواقع القائم، وجوانب الضعف والقوة في تلك النظم والإدارات أو لدى تلك الجماعات، وكيفية النفاذ إليها وزعزعتها(٤١).

---

(٤) أندرو هيود: مرجع سابق،ص:١١.

(*) مبدأ حق تقرير المصيرSelf determination: هو مصطلح فى القانون الدولى يعنى منح الشعب أو السكان المحلين إمكانية أن يقرروا شكل السلطة التى يريدونها وطريقة تحقيقها بشكل حر وبدون تدخل خارجى.

(١) أندرو هيود: المرجع نفسه، ص:١٢.

(٢) عبدالرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل: مرجع سابق، ص ص:٥٥، ٥٦.

(3) Cloin summer. Readings in idelology an investrgation into the Marxist theory of ideology and low (London: the academic press 1979)pp.4_6.
،عبدالرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل: مرجع سابق،ص:٦٧.

فضلًا عن كونها تحدد شكل الحكم والحكام وكيفية اختيارهم ومبـــاديء اســـتقرار حكمهم، وتشكيل الحجج التي يمكن بواسطتها التغلب علـــى الآراء المضـــادة، واحتضـــان برامج تدعيم أو إصلاح أو إلغاء التنظيمات الاجتماعية والسياسية الهامة مع التـــأثير فـــي بعض القيم الكبرى في الحياة[٤٢].

وبناء عليه فإن الأيديولوجيا بذلك تكن بمثابة الجسر التى تعبر من خلاله السياسة إلى المجتمعات المختلفة ، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن: هل من الممكن أن تكون هناك سياسة بلا أيديولوجيا؟ أم أن السياسة هي قدرها ؟

من التصورات الخاطئة التي التصقت بالأيديولوجيا وانتشرت على نطاق واســـع، هو ربط وحصر مفهوم الأيديولوجيا في ناحية واحدة وهي ناحية الفكر السياسي في الدول والمجتمعات، فالفكر السياسي هو بلا شك أحد مكونات وعناصر الأيديولوجيا العامة ولكنه في ذات الوقت لا يمثل الأيديولوجيا ولا يفسرها تفسيرًا كاملًا، ولعل السبب الأساسي فـــي هذا الاعتقاد الخاطئ يرجع إلى أن الفكر السياسي يعد عنصـــرًا رئيســـيًا مـــن العناصـــر المكونة للأيديولوجيا العامة، ولكنه ليس بأي حال من الأحـــوال هـــو العنصـــر الوحيـــد المؤثر[٤٣]بها.

فالأيديولوجيا كانت في بداية ظهورها وليدة الظروف السياسية التـــي دفعـــت دي تراسى وجماعته للبحث عن تلك الأفكار التي تعمل على نهضة بلادهم فرنسا كمـــا ســـبق وأن ذكره، إلا أن ذلك الميلاد لا يمكن أن يدفعنا نحو التصديق علـــى مـــن يـــدعي بـــأن الأيدولوجيا هي حكرًا للعمل داخل الحقل السياسي فحسب، وكأن الأفكار جميعها تنصـــب في قالب سياسي وحده دون النزوع لقوالب أخرى، وهذا ما يخالف طبيعتها بكونها حركة العقل نحو الفعل، ولكن اي فعل؟ الفعل في الدين أو العلم أو المجتمع أو غير ذلك ومن ثم فإن الأيديولوجيا تتشابك أنسجتها وتتوالد براعمها في كافة المجالات الحياتية المختلفة.

---

(1) Robert lane, the political ideology(new yourk: free press. 1968)pp14_16.
،عبدالرحمن خليفة وفضل الله محمد إسماعيل: مرجع سابق، ص:٦٧.

(٢) الرشـيد حبـوب محمـد" الأيـديولوجيا وأثرهـا علـى الفكـر التربـوي" العـدد ٩٨،مجلـة كليـة التربية(السعودية،٢٠٠١م) ص:٢٥٩.

ولعل ما دفع البعض للنظر إلى الأيديولوجيا بوصفها الوجه الآخر للسياسة، هو ما تقدمه للعمل السياسي ابتداء من الغائية ومروراً بالتبرير وهدم الايديولوجيات الأخرى وأعمال الإقناع وتعبئة الجماهير، فجميعها أشياء يتطلبها العمل السياسي وتمنحها الأيديولوجيا، فإن كانت صورة من صورها فلا يمكن إذن أن تقتصر عليها حتى وإن خضعت لعمليات **التوظيف Recruitment** التى هى ركن أصيل بها فتعمل على هدم ثابت كما فى الثورات أو دعمه فى السلطة.

نتائج البحث

" **نحن نكتسب المطلق ولا نولد به**" فالطفل ذو البشرة البيضاء لا ينظر إلى الإسود من بنى جنسه، نظرة دونية إن لم تكن تلك النظرة بحوزة من يكبره سنا، فيتوارثها الإبن عن الأجداد وسط بيئة تعج بالعنصرية حتى يصبح لديه ما يؤهلة للإدعاء بإمتلاك المطلق وبأنه وحده صاحب الحقيقة المطلقة دون غيره، بإعتباره الجنس الأرقى والأنقى، ومن ثم فإن الجينات الوراثية لدى الإنسان لا تحمل خلايا عنصرية، بينما يكتسها المرء من الخارج يمكن أن يؤخذ منه ويضاف عليه" فعبارة الطبع يغلب التطبع ما هى إلا وسيلة يلجأ المرء إليها ليبقى على ما به من سوء خلقه لأن كل ما هو مكتيب هو عرضة لأن يتغير.

"**الطريق للخلاص من الدوجما يبدأ بالفلسفة**" فالرؤية النقدية التى تحملها الفلسفة قد تكفل للأيديولوجى فى عمله سبل الخلاص من الدوجما وذلك عن طريق تقبل الآخر بإعتباره متعايش معه لا عدو له وإعمال النقد الذاتى بداخلها لتكشف عن أوجه القصور وتسعى لمعالجتها، كما أنها من الممكن أن تمده بالحجج العقلية اللازمة لدعم ما يعتقد به دون اللجوء للمبررات الى قد تفقدها مصداقيتها لدى المنتسبين لها كلما انكشف زيف محتواها.

قائمة المراجع

١. أمين حافظ السعدنى: أيديولوجية السلطة السياسية بين المذهبين الليبرالى والإشتراكى(القاهرة: الوثائق الجامعية، ٢٠١٦م).

٢. أندروهيود:مدخل إللى الأيديولوجيات السياسية، ترجمة محمد صفار،ط١(القاهرة: المركز القومى للترجمة،٢٠١٢م).

٣. بول سالم: الميراث المر، ترجمة: بدر الرفاعى،ط١(القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٠م)

٤. حسين على: العلم والأيديولوجيا بين الإطلاق والنسبية(بيروت: التنوير، ٢٠١١م).

٥. عبد الرمن خليفة: أيديولوجيا الصراع السياسى، دراسة فى نظرية القوة (الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م)

٦. عبدالله إبراهيم: ماهى الأيديولوجيا؛علم الأفكار أم الأفكار بدون علم؟ الطبعة الأولى(بيروت: دار التنوير، ٢٠١٧م).

٧. مايكل فريدن"عصر ما بعد الأيديولوجيا، مدخل إلى مواجهة الأوهام" العدد٦، المركز الإسلامى للدراسات الإستراتيجية(بيروت، ٢٠١٧).

٨. محمد سبيلا وعبدالسلام بن عبد العالى: الأيديولوجيا، دفاتر فلسفية،ط٢(المغرب: توبقل للنشر، ٢٠٠٦م)

٩. محمد سبيلا" الأيديولوجيا كأسطورة" المجلد ١٣، العدد٧٠، معهد الإنماء العربى(بيروت،١٩٩٢م)

١٠. محمد نو الدين" مفارقات الفلسفة" المجلد٣٥، العدد ٤٠٥، المستقبل العربى (بيروت، ٢٠١٢م)

١١. مراد وهبة: ملاك الحقيقة المطلقة(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩م)